

كما اختلف علماء البيان في كلامه، فتناظروا في تخرج عباراته، وفي الانتصار له، والتعصب عليه، وذكرت له آراء - مستقلة في كتب البلاغة كانت موضع مناقشات بين العلماء ومن أشهر ذلك المناظرة التي وقعت بين السعد والسيد حول اجتماع الاستعارة التمثيلية والتبعية في كلام الزمخشري عند قوله تعالى: "أولئك على هدى من ربهم".

والناس في هذا العصر يطالعوننا بشيء يزعمونه جديداً ويؤكدون أن القدماء لم يتنبهوا إليه: يقولون إن قواعد البيان يجب أن تقوم على أصول علم النفس،

ما فاتهم أنهم لم يجعلوا هذه الأمور النفسية علما، وإن كانوا تنبهوا إلى أثرها في الكلام، ونكتفي هنا - وبهذه المناسبة - بمثل واحد من أمثلة كثيرة، يبين كيف يختلف الأسلوب تبعاً لاختلاف مكان معاني الكلام في النفس، فيترك تأكيد

الحكم المنكر لأن نفس المتكلم لا تساعد على تأكيده، ويؤكد الحكم المسلم لصدق الرغبة فيه والرواج، وذلك حيث يقول صاحب الكشف في قوله تعالى: "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلي شياطينهم قالوا إنا معكم" ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم لا في ادعاء أنهم أوحديون فيه، إما لأن أنفسهم لا تساعد على عدم الباعث والمحرك من العقائد، وإما لأنه لا يروج عنهم لوقالوه على لفظ التوكيد والمبالغة، وإما مخاطبة إخوانهم في الأخبار عن أنفسهم بالثبات على اليهودية فهم فيه على صدق ورغبة ووفور نشاط، وهو رائج عنهم متقبل منهم، فكان مظنة للتحقيق، ومئنة للتوكيد.

و في هذه النظرات وأمثالها ما يرد على بعض من كتبوا في البلاغة من المحدثين، حيث عابوا على المتقدمين أنهم قصروا للتوكيد وعدمه على حال المخاطب دون حال المتكلم.